

الشعر العذري في ضوء القراءة النفسية - يائنة قيس بن الملوّح أنموذجاً -

الأستاذ: حاكمي لخضر - جامعة د. مولاي الطاهر بسعيدة

كلية الأدب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

(المبدع إنسان قبل كل شيء، وما الإبداع الذي يُنشئه إلا نتاج الخيال، وما خياله، في حقيقة الأمر، إلا إفراز لآلوعي نفسه منذ صباه إلى حيث هو من العمر).

- د. عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد ص 140 -

تمهيد:

«قلنا فيما تقدّم¹: إنّ الشعر العذري ظلّ لوقتٍ طويلٍ يَصِفُ نَوَازِعَ النَّفْسِ العُذْرِيَّةِ عِبْرَ تَحَوُّلاتِهَا الوجدانية، حتّى وُسِمَ هَذَا الشَّعْرُ بِاسْمِ هَذِهِ الْقَبِيلَةِ العَرَبِيَّةِ (الشَّعْرُ العُذْرِي)؛ وَقَدْ أَدْرَجَهُ النُّقَادُ ضِمْنَ الشَّعْرِ الْعَقِيفِ الْمُتَّصِلِ اتِّصَالاً وَثِيقاً بِحَرَكَةِ المَدِّ الإسلامي، الذي اسْتَشْرَتْ تَعَالِيمُهُ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، والذي يُنَوِّهُ بِالْعَقَّةِ وَالْعَفَافِ. فَكَانَ هَذَا اللَّوْنُ مِنَ الشَّعْرِ قَدْ أَحْدَثَ طَقْرَةً نَوْعِيَّةً فِي التَّغَيُّ بِالْمَرْأَةِ، حِينَمَا قَلَّلَ مِنَ التَّصْوِيرِ الْخَلِيعِ الْمَاجِنِ الَّذِي اسْتَهْوَى شِعْرَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ طَوَالَ عُهُودِ كَثِيرَةٍ.

وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ جِهَتِنَا أَنْ نُقِيمَ مُقَارَبَةً نَفْسِيَّةً، نُحَاوِلُ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْحِيزِ اللُّغَوِيِّ لِتَفْسِيرِ مَا اسْتَقَى مِنْ أَحْيَازٍ نَفْسِيَّةٍ تَظْهَرُ مَلَامِحُهَا عِبْرَ الْأَصْوَاتِ وَالكَلِمَاتِ وَالْجُمَلِ. وَقَدْ انْطَلَقْنَا بِأَدَى ذِي بَدْءٍ مِنْ افْتِرَاضِ مُؤَدَّاهُ: أَنَّ مَا يَقَعُ مِنْ سُلُوكٍ عُذْرِي، قَدْ تَنَطَّبَعُ رُؤَاةً وَتُتَرَجَّمُ سُلُوكَاةً عِبْرَ مَسَارَاتِهِ اللُّغَوِيَّةِ بِشَكْلِ لَا فِتْ لِلنَّظَرِ، حَتَّى كَانَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ لَا يَفْتَنُونَ بِقَوْلُونِ - فَوْرَ سَمَاعِهِمْ لِقَصِيدَةٍ مَا - بِأَنَّ هَذَا شِعْرُ قَيْسٍ أَوْ شِعْرُ جَمِيلٍ.

وَقَدْ اعْتَمَدْنَا - وَنَحْنُ نُقَارِبُ يَائِنَةَ قَيْسِ بْنِ الْمَلُوحِ - عَلَى جُمْلَةٍ مِنْ مَبَادِي التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ، الَّتِي اسْتَقَرَّتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّقْدِ النَّفْسِيِّ، حِينَمَا بَدَأَ النُّقَادُ بِتَحْلِيلِ الظَّوَاهِرِ النَّفْسِيَّةِ لِلأَدْبَاءِ مِنْ خِلَالِ أَدْبِهِمْ، وَهُوَ مَا سُمِّيَ

بـ: La psychanalyse des œuvres

و لا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ التَّغْنِيَّ بِالْمَرْأَةِ يَسِيرُ جَنَبًا إِلَى جَنَبٍ مَعَ مَقَامَاتِ الْحُبِّ وَالْعِشْقِ وَمَا شَاكَلَهُمَا، وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ تَكَلَّمَ فِيهَا عَدَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ وَالتَّصَوُّفِ، وَأَرْبَابِ الْأَدَبِ * فَقَدْ قَالَ ابْنُ حَزْمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْعِشْقِ بَأَنَّهُ: "اتَّصَالَ بَيْنَ أَجْزَاءِ النُّفُوسِ الْمَقْسُومَةِ فِي هَذِهِ الْخَلِيقَةِ فِي أَصُولٍ عُنْصُرُهَا الرِّفِيعُ (...) عَلَى سَبِيلِ مُنَاسَبَةٍ قِيَامُهَا فِي مَقَرٍّ عَالِمِهَا الْعُلُوي، وَمُجَاوَرَتُهَا فِي هَيْئَةٍ تَرْكِيبِهَا"².

ولذلك، يَظْهَرُ الْعِشْقُ كَمَا لَوْ كَانَ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ الشَّعَائِرِ الدِّينِيَّةِ، الَّتِي تَحْمِلُ طَابِعَ الْقَدَاسَةِ وَالطَّهَارَةِ وَالْعَظَمَةِ، وَمِنْ ثَمَّ فَهِيَ تُعْلِي مِنْ شَأْنِهِ فِي كَوْنِهِ قِيَمَةً أَكْثَرُ مِنْ اجْتِمَاعِيَّةٍ مَا دَامَ يَسْتَجِيبُ لِلرُّوحِ فِي مَنَاجَاتِهَا، وَأَنَّ هَاتِهِ الْأَخِيرَةَ (الْمَنَاجَاةُ الدَّاخِلِيَّةُ) مَطْلَبٌ سَمَاقِي، يَنَاقِي كُلَّ النَّاقِي عَنِ الْجَانِبِ الْحَسِّيِّ الْخَلِيعِ الَّذِي اسْتَهْوَى أَغْلَبَ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ.

و يُمَكِّنُ الْقَوْلُ: إِنَّ هَذِهِ الْمِيزَاتِ الشَّعْرِيَّةَ ظَهَرَتْ فِي أَوْجٍ عَطَاءَتِهَا فِي الْعَهْدِ الْأُمَوِي، وَبِالْتَّحْدِيدِ لَدَى شُعْرَاءِ بَنِي عُدْرَةَ. وَهُوَ أَمْرٌ لَهُ مَا يَبْرُرُهُ فِي الْفَضَاءِ النَّقَافِي وَالذِّينِي أَنْدَاكُ؛ وَلِذَلِكَ بَدَتْ طُقُوسُ هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْعِشْقِ لَا تَفْتَأُ تَتَلَدَّدُ بِالْفِرَاقِ وَالْوَانِيهِ، وَتَتَشَدَّدُ الْوَحْدَةَ وَتُحَبِّدُ الْمَوْتَ بَدَلِ الْحَيَاةِ، وَمِنْهُ يَكُونُ الْحُبُّ الْعَذْرِي قَدْ "أَصَلَ لِلْمَفْهُومِ الرُّوحَانِي لِمَاهِيَةِ الْعِشْقِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَأَضَافَ إِلَيْهَا أَبْعَادًا رُوحِيَّةً جَدِيدَةً، أَصْبَحَتْ بَعْدَ ذَلِكَ مُنْطَلَقَاتٍ أُسَاسِيَّةً لِحَرَكَةٍ

التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِي، إِذَا نَرَى أَنَّ الْعُدْرِيَّةَ فِي مُنْطَلَقَاتِهَا الْمَعْرِفِيَّةِ ضَرْبٌ مِنَ السُّكْرِ الصُّوفِي، وَإِرْهَاصَاتٍ أُولِيَّةٍ لِلْوَجْهِ الْعِرْقَانِي، إِذِ الصُّوفِيَّةُ بَدَأَتْ مِنْ حَيْثُ انْتَهَتْ الْعُدْرِيَّةُ"³.

وَأَعْلَى مُؤَلَّفَاتِ التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِي * أَشَارَتْ جُلُّهَا إِلَى مَرَاتِبِ السَّالِكِينَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، جَاعِلَةً الْعِشْقَ أَهَمَّ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ وَأَقْوَمَهَا فِي الْوُصُولِ وَالْقُرْبِ إِلَى مَذَارِجِ الْعَارِفِينَ بِاللهِ، أَوْ قُلْ: الْحُبِّ الْإِلَهِيِّ. وَإِنَّ أَوْجُهُ التَّلَاقِي بَيْنَ الْعِشْقِ كَمُمَارَسَةِ رُوحِيَّةٍ بَيْنَ إِنْسَانٍ وَإِنْسَانٍ، أَوْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَاللَّهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ، هُوَ أَنَّ كُلَّيْهِمَا يَنْطَلِقُ مِنْ فِطْرَتِهِ الصَّافِيَّةِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْأَحْقَادِ وَالْأَضْغَانِ وَالتَّرَهَاتِ...، وَغَايَةُ الْغَايَاتِ الَّتِي يَسْعَى إِلَيْهَا كُلُّ قَرِيبٍ هُوَ كَسْبُ رِضَى الْحَبِيبِ وَلَوْ بَعْدَ أَمَدٍ طَوِيلٍ، لِأَنَّ الْعَاشِقَ فِي رَأْيِ الْجِيلِي - "يَرَى مَعْشُوقَةً فَلَا يَعْرِفُهُ وَلَا يَصِيرُ إِلَيْهِ كَمَا رُويَ عَنْ مَجْنُونٍ لَيْلَى أَنَّهَا مَرَّتْ بِهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَدَعَتْهُ إِلَيْهَا لِتَحَدِّثَهُ فَقَالَ لَهَا: دَعِينِي فَإِنِّي مَشْغُولٌ بِلَيْلَى عَنْكَ وَهَذَا آخِرُ مَقَامَاتِ الْوُصُولِ وَالْقُرْبِ. وَفِيهِ

يُنكر العارفُ معروقه، فلا يبقى عارفٌ ولا معروفٌ ولا عاشقٌ ولا معشوقٌ ولا يبقى إلّا العشق وحده، والعشق هو الذات المحضُ الصّرفُ، الذي لا يدخل تحت رسمٍ ولا نعتٍ ولا وصفٍ (...). فإذا امتحق العاشقُ وانطمس، أخذ العشقُ في فناء المعشوق والعاشق، فلا يزالُ يُفني منه الاسمَ ثمّ الوصفَ ثمّ الذاتَ، فحينئذٍ يظهر العاشقُ بالصّورتين، ويُوصَفُ بالصّفتين، فيُسمّى بالعاشق ويُسمّى بالمعشوق⁴.

ولهذا، لمّا حاولنا تبيينَ المفارقات الفكرية لدلالة العشق بين التصورين: العربي والغربي، لوجدنا أنّ مسارَ الأول يتنزّل من فطرةٍ سليمةٍ صافيةٍ، وهي فطرَةُ الله التي فطرَ النَّاسَ عليها، والتي لا تُعبَأ بالماديّات، بل تُسمو إلى الرُّوحانيّات، بما تتركّزُ في الفرد من حيّاءٍ وحشمةٍ كفيّلين بتقويم العلاقات الاجتماعيّة فيما بينه وبين النَّاس، ولذلك انعكست تعاليمُ الدّين الإسلامي في عهدِ الخلافة الأمويّة على جميع الأصعدة، بما في ذلك الرُّوحية منها، ممّا ولد انطباعاً غيرَ مباشرٍ بالعقّة وقمّع الشهوات، فبدأ واضحاً أنّ الخوفَ من الدّنب صارَ يُشكّلُ في أحيين كثيرٍ " شكلاً لاشعورياً يتبدّى بصورة أساسية في التسليم المسبق بالعفاف العشقي...إنّ تشبّث العذريّين بمقولة العقّة ليست إلاّ النّتاج الحتميّ للخوف من السقوط في الدّنب، بل هي الدّرع الواقى الحاجز بين الفرد والإثم"⁵.

ولذلكم، دلّ مُصطلحُ الحُبِّ في المخيال العربي أنّذاك على صفاء السرّان، وتقوية المشاعر، وتهذيب النّفس من فحش الماديّات، فشكّلَ بتلك الصّورة المُستجدة في عالم الرُّوح مفارقات جوهرية في المفهوم مع نظيره العربي، ذلك أنّ الحُبَّ على عهد الإغريق ليس وحده الحب، ولكنّ اسمه يُخفي في ثناياه أسماءَ أخرى متعدّدة، إنّه الموت والقوّة التي لا تحوّل ولا تزول، إنّه الشهوة المحض، الجنون العاصف والنواح⁶. ولكن، هل فعلاً أنّ الحُبَّ هو في الأصل الجوهري انعكاسٌ مّيالٌ إلى الإفراغ الليبيدي على حدّ تفسير مدرسة التحليل النّفسي؟.

إنّ الرُّؤية التي كانت تبدو في الملمح العربي طاهرةً نقيّة، قد شوّهت صورتها في المنظور الغربي، وتبريرهم في ذلك يكمنُ في أنّ ما يقع من ردّ فعل المحبين إنّما هو حُبٌّ مقمّوعٌ، يبني نظرتَهُ على أسس ماديةٍ بحثة " وما القمع الذي سلّطته الحضارات على العشق إلاّ حفاظاً

على طاقة الليبدو حتى تُستثمر في البناء الحضاري للأمة عبر مشروعاتها الإنتاجية⁷.

ولذلك يستشف الباحث في تاريخ الدولة الأموية أن العشق بات في منظورهم الوسيلة الأساس لدرء الفرد عن المساس بالجانب السياسي، والذي قد يُنسيه لزمان -قد يطول- نقد السلطة السياسية، والتطلع إلى التغيير. ومن هنا شكّل العشق ظاهرة أدبية على غرار كونه ظاهرة نفسية، وذلك حينما انكفأ شعراء بني عذرة على أنفسهم يسألونها ويحاورونها عبر أشعارهم، التي مازال التاريخ الأدبي يحتفظ لنا بقسط وافر منها.

أولاً: الـبائية (دعوني أموت)

- 1- دعوني دعوني قد أطلتم عذابيا
وأنضجتم جلدي بحر المكاويا
- 2- دعوني أمت غيماً وهماً وكربة
أيا ويح قلبي من به مثل ما بيا
- 3- دعوني بغمي وأنهدوا في كلاءة
من الله قد أيقنت أن لست باقيا
- 4- وراعكم إني لقيت من الهوى
تباريح أبلت جدتي وشبايا
- 5- براني شوق لو برضوى لهذه
ولو بشير صار رؤساً وشافيا
- 6- سقى الله أطبلاً بناحية الجمی
وإن كن قد أبدين للناس ما بيا
- 7- منازل لو مرت عليها جنازتي
لقال الصدى: يا حاملي انزلا بيا
- 8- فأشهد بالرحمن من كان مؤمناً
ومن كان يرجو الله فهو دعا ليا

- 9- لحي الله أقواماً يقولون: إِنَّا
وَجَدْنَا الْهَوَى فِي النَّأْيِ لِلصَّبِّ شافيا
- 10- فما بال قلبي هَذِهِ الشَّوْقُ وَالْهَوَى
وَأَنْضَجَ حَرُّ الْبَيْنِ مَنِّي فَوَادِيا
- 11- أَلَا لَيْتَ عَيْنِي قَدْ رَأَتْ مِنْ رَأَكُمُ
لِعَلِّي أَسْلُو سَاعَةً مِنْ هُيَامِيَا
- 12- وهيهات أن أسلو من الحزن والهوى
وهذا قميصي من جَوَى الْبَيْنِ بَالِيَا
- 13- فقلت: نَسِيمَ الرِّيحِ أَذْ تَحِيَّتِي
إِلَيْهَا وَمَا قَدْ حَلَّ بِي وَدَهَانِيَا
- 14- فَأَشْكُرُهُ إِنِّي إِلَى ذَاكَ شَائِقٌ
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ يَكُونُ تَلَاقِيَا
- 15- مَعْدَبَّتِي! لَوْلَاكِ مَا كُنْتُ هَائِمًا
أُبَيْتُ سَخِينِ الْعَيْنِ حَرَّانَ بَاكِيا
- 16- مَعْدَبَّتِي! قَدْ طَالَ وَجْدِي وَشَقْنِي
هُوَ أَكْ فَيَا لِلنَّاسِ قُلَّ عَزَائِيَا
- 17- مَعْدَبَّتِي! أَوْرَدْتَنِي مِنْ هَلِّ الرَّدَى
وَأَخْلَقْتَ ظَنِّي وَاخْتَرَمْتَ وَصَالِيَا
- 18- خَلِيلِي إِنِّي قَدْ أَرَقْتُ وَنِمْتُ مَا
لِبَرْقِ يَمَانٍ فَاجْلِسَا عَلَّانِيَا
- 19- خَلِيلِي لَوْ كُنْتُ الصَّحِيحَ وَكُنْتُ مَا
سَقِيمَيْنِ لَمْ أَفْعَلْ كِفْعَلِكُمَا بِيَا
- 20- خَلِيلِي مُدًّا لِي فِرَاشِي وَارْفَعَا
وَسَادِي لَعَلَّ الْيَوْمَ يُذْهِبُ مَا بِيَا

21- خَلِيلِيَّ قَدْ حَانَتْ وَفَاتِي فَاطِلَبَا

لِي النَّعْشَ وَالْأَكْفَانَ وَاسْتَغْفِرَا لِيَا

22- وَإِنْ مِتُّ مِنْ دَاءِ الصَّبَابَةِ أَبْلَغَا

شَبِيهَةً ضَوْءِ الشَّمْسِ مِنْ نِيَّ سَلَامِيَا⁸

ثانيًا: القراءة النفسية La Lecture psychologique

كان التحليل النفسي Psychanalyse في بادئ الأمر متعلقًا بمعالجة الأشخاص المرضى نفسيًا غير أنهم سرعان ما انقلب إلى معالجة نفسية للأدباء من خلال أدبهم، أو ما اصطلح عليه بـ: التحليل النفسي للإبداع Psychanalyse des œuvres وهذا مطلع القرن العشرين⁹. وتُشير الدراسات إلى أن " أول من طوّر إجراء التحليل النفسي في معالجة الأمراض النفسية فرويد نفسه ابتداءً من عام 1885م. ولقد كان للاستكشاف الفرويدي آثارًا خصبة في كثير من مجالات المعرفة، ولاسيما في تأويل السلوك الإنساني اليومي: وفي تأويل طبيعة الإبداع الذي يزعم فرويد وأصحابه أنه يصدر عن صاحبه في حالٍ من اللاوعي...¹⁰ .

قد يكون اللاوعي نتاجاً لأزمات نفسية حصلت في لاشعور الشخص في لحظة من لحظات الطفولة جرّاء إغتيابه لرغبات مادية كانت أو معنوية، وهو ما أسماه بعض علماء النفس بـ: عقدة أوديب Le complexe d'oedipe. ومن هنا يبدأ عمل هذه النزعة في متابعة العمل الإبداعي للمبدع، ثم الكشف عن هواجسه من خلال مساءلة ألفاظه، وبالتالي إيجاد ملمح متميّز يبرز العلاقات الخفية الكائنة بين المؤلف ومؤلفه.¹¹

2-2 النوستالجيا القيسية: (الحنين) La nostalgie.¹²

-الْقَارِئُ لِيَأْتِيَةَ قَيْسِ بْنِ الْمُلُوحِ "المجنون"***، لَا شَكَّ أَنَّهُ سَيَبِينُ مَظَاهِرَ الْحَنِينِ الْمُتَوَارِي خَلْفَ الْكَلِمَاتِ، وَقَدْ ارْتَسَمَتْ تِلْكَ الْمَظَاهِرُ بِالْخُصُوصِ فِي مَرَحَلَةِ الصِّغَرِ، وَهِيَ مَرَحَلَةُ تَوَمُّي إِلَى جَنِينِيَّةِ هَذَا الْحُبِّ، أَوْ قُلْ:بِدَائِيَّتِهِ الْأُولَى، وَلِهَذَا نَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرَحَلَةَ هِيَ الَّتِي عَزَزَتْ الْمَسَارَ الْعِشْقِيَّ، وَأَنْتَجَتْ نَفُوسًا مُمَرِّقَةً، وَأَنَاتٍ نَحْسُ بِرَنِينِهَا عَنِ الْأَصْوَاتِ وَالْكَلِمَاتِ الْجَمَلِ.

وهذا الحيزُ الزماني يُرجعنا إلى فترة حكم بني أمية آنذاك، وإلى العلاقة الروحية التي كانت بين قيس وليلى ابنة عمه وهما حدثان صغيران، حتى فاح ذكرهما أصقاع البلاد العربية، وألفت فيهما المؤلفات، وحيكت فيهما الأساطير، وتسامر بهما الناس في حلهم وترحالهم؛ وقد عللَ عدنان زكي درويش في شرحه لديوان قيس بن الملوح نماء العلاقة الروحية بين قيس وليلى في مرحلة متقدمة من السن، من خلال إيراد ملحقات مما فيه هذا العنوان: (عشق ليلى صغيراً)، ويتضمن قولاً لأحد الرواة يقول فيه: (قال أبو عمر الشيباني وأبو عبيدة: كان المجنون يهوى ليلى بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك، وهما حينئذ صبيان، فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلها، فلم يزا إلا كذلك حتى كبرا فحُبيت عنه، ويدل على ذلك قوله:

صغيرين نرعى البهْمَ يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهْم)¹³.

إن ملامح العقيدة الإسلامية التي طوّقت الإنسان المسلم في عهد الخلافة الأموية، قد طوّقت أدبه أيضاً، وهذبت لسانه لأن كل شيء سيُسأل عنه المرء يوم القيامة عملاً بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾¹⁴. وهذه المراقبة الدينية المستمرة على الإنسان في ظل النظام الأموي، جعلت قيساً يبحث عن نظام آخر، غير نظام المدينة، إنه نظام الطبيعة الصافية الخالية من الأضغان والأحقاد، والتي تدع الأمور تسير على سجيّتها، والخروج إليها ضرب من إيعازات النفس النائمة إلى عالم التأمل والتدبر، وهي في تقديرنا ضرب من السكر الصوفي، الذي يتوق فيه صاحبه الخروج إلى الخلوات، والتفكير في ملكوت الله، بعد أن أضناه عنف المجتمع، والتكالب على الدنيا.

نعتقد أن هناك عوامل جمّة تنتهافت في تليين الذات الولهانة، وتزيد من حدة الوله قوة، مكونة حساً درامياً (مأساوياً) بالنسبة للشاعر، ونراها تنعكس على الأداء اللغوي، الذي نحس معه بنبض الكلمات - كما لو كانت كائناً يذب حركة وحيوية - وهاتيك العوامل هي بالخصوص: الأطلال القفرة، والتي تمثل المكان الحاوي لموقعة الذكريات، ومراكز الأنس... وغيرها من الإشعاعات المكانية الأخرى. كما أن الزمن هو أسمى فضاء للتعبير، لما يحويه من أسرار تُساير أزمِنته المختلفة، من

مثل الليل والنهار، وأحوال الفصول الأربعة التي تنعكس على الإنسان المتفكر في (صنع الله الذي أتقن كل شيء)...و ما إلى ذلك من عناصر زمنية تُجانب النفس الإنسانية في شدتها ولينها، لأن (في ذلك لآيات للمتوسمين) الشاعرين بسحر الوقت، وقوة الأداء الشعري فيه. ولذلك نلقي يوسف اليوسف يعرج على هذا المفهوم النفسي بقوله من أن النوستالجيا هي: «النوقان المنهوم إلى الماضي وإلى أماكن معينة»¹⁵.

وقد ارتسمت معالم هذا المعطى النفسي في قول قيس:

- 4- وراعكم! إني لقيت من الهوى
تباريح أبليت حذتي وشبابيا
- 5- براني شوق لو (برضوى) لهدّة
ولو (بثبير) صار رمساً وشافياً
- 6- سقى الله (أطلالا) بناحية (الحمى)
وإن كنّ قد أبدین للناس ما بيّا
- 7- (منازل) لو مرّت عليها جنازتي
لقال الصدى: يا حاملي انزلا بيا¹⁶

إن تلك الدلائل النوستالجية التي ألمعنا إليها منذ قليل، تتداعى في جسد القصيدة تداعياً يكشف عن مضامين الحنين المتواري خلف الكلمات، من ذلك مثلاً الكلمات: رضوى، ثبير، أطلال، الحمى، منازل... إن هذه الكلمات تمثل أكثرها المكان بما يحمله من معاني جليلة وعظيمة في قلب الشاعر، وتزيد العشق قوة وسيلاناً عاطفيين، ذلك أن رضوى وثبير جبالن عظيمان شامخان لا يتزعزعان البتة، بيد أن قوة هذا الحنين الطافح في نفس العاشق الوكهان قد نذوب الجبلين وتلين شموخهما، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على عظمة الوجد التي أودت بقيس إلى وهاد الموت.

ثم إن درامية الحنين تتسبّع أيضاً بالمكان الميت (الطلل) الذي تبدو فيه الذكريات ضرباً من الحلم العابر، ولذلك يفتقي الشاعر هذا الأخير (الطلل) افتقاءً يبتغي من ورائه استحضار الصورة الماضية كأنما هي صورة متحركة تعاود مسرح ما مضى واندثر؛ ولهذا يبدو الحنين منبئاً بمسارب الطلل، الذي يشكل الوجه الحقيقي لأواسر الشوق على عهده الأول. وكان مما أجلي صورة الحنين الدافق هو البيت السابع من القصيدة، القائل فيه:

- (منزل) لَوَمَرْتُ عَلَيْهَا جَنَازَتِي لَقَالَ الصَّدَى: يَا حَامِلِي انْزِلَا يِيَا
فَلَمَّا أَنْ نَسَّالَ هَاهُنَا عَنْ قُوَّةِ هَذَا التَّجَادُبِ الْمَشْحُونِ بِقُوَّةِ الْمَغْنَطَةِ
الرُّوحِيَّةِ بَيْنَ الْأَنَا الْمَيِّتَةِ وَالْمَكَانِ الْخَرِبِ؟! ثُمَّ لِمَاذَا هَذَا التَّرْوُلُ فِي هَذَا
الْمَكَانِ بِالذَّاتِ؟.

نَعْتَقِدُ أَنَّ بَيْنَ الْمَكَانِ وَالْأَنَا عِلَاقَةً تَتَحَوَّلُ مِنْ حَقِيقِيَّةٍ إِلَى أُسْطُورِيَّةٍ
Relation Légendaire، لِأَنَّ الْمَكَانَ بِمَا يُخَزِّنُهُ مِنْ ذِكْرِيَّاتٍ أَضْحَى
قَرِيبًا فِي خَيَالِ الشَّاعِرِ إِلَى الْحُلُمِ مِنْهُ إِلَى الْحَقِيقَةِ، ثُمَّ إِنَّ هَاتِيكَ الْأَمْكِنَةَ
الْمَذْكُورَةَ «انْضَوَّتْ تَحْتَ الْأَمْكِنَةِ ذَاتِ الطَّابِعِ الدَّاتِي، حَيْثُ حَمَلَهَا
الشَّاعِرُ هُمُومَهُ الْفَرْدِيَّةَ وَانْشِغَالَاتِهِ الْوُجْدَانِيَّةَ، وَقَدْ تَبَلَّوْرَتْ تَجَرِبَتُهُ مَعَ
هَذَا النَّوْعِ مِمَّا عَاشَهُ وَعَاشَتْهُ فِي شَبَابِهِ مِنْ لَهْوٍ وَمُغَامَرَاتٍ غَرَامِيَّةٍ،
وَتَفَاحُرٍ بِالشَّبَابِ؛ فَتَجَسَّدَ كُلُّ ذَلِكَ فِي الطَّلَلِ كَصُورَةٍ مَكَانِيَّةٍ تَرْمِزُ
إِلَى سِلَاحِ الشَّاعِرِ ضِدَّ الْفَنَاءِ، وَمَعَاوِلِ الزَّمَنِ»¹⁷.

وإِنَّ هَذِهِ الْأَمْكِنَةَ - عَلَى شُمُوحِهَا السَّامِي فِي نَفْسِ الشَّاعِرِ - لَا تَنَقَلِتُ
الْبَيْتَةَ مِنْ جَوْهَرِ الزَّمَنِ، مَا دَامَ الْحَدِيثُ عَنِ الشَّوْقِ يُقْضَى
بِالضَّرُورَةِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ هَذَيْنِ الْعُنْصُرَيْنِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلِأَنَّ
الْحَنِينَ «عَمَلِيَّةَ نَفْسِيَّةٍ مُرَكَّبَةٍ فِي أُسَاسِهَا مِنْ اسْتِحْضَارِ الْحَبِيبِ فِي مَكَانٍ
وَزَمَانٍ مُعَيَّنَيْنِ. فَالْنَصُّ الْعُدْرِي فِي شُمُولِيَّتِهِ يَحْتَوِي عَلَى بَلْكَ
الْعُنَاصِرِ السَّابِقَةِ الدُّكْرِ، سَوَاءً أَصْرَحَ بِهَا أَمْ لَمْ يُصْرَحْ بِهَا، إِذِ
التَّصْرِيحُ بِوَاحِدٍ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى الْعُنْصُرَيْنِ»¹⁸.

وَتَخْلُصُ قِرَاعَتُنَا فِي هَذَا الْجَانِبِ مِنَ الدِّرَاسَةِ، إِلَى أَنَّ نَوَازِعَ الْفَرَحِ
وَالْتَرَجَّ كَامِنَةٌ فِي ذَاتِ الشَّاعِرِ وَفَقَّ صَرَّحَيْنِ زَمَنِيَّيْنِ مُسْتَطِيلَيْنِ فِي
خَيَالِهِ، أَلَا وَهُمَا: الْمَاضِي الدَّهْبِي الْمُقْعَمُ بِتَجَارِبِ الصَّبَا، وَالْحَاضِرِ
الْمَأسَاوِي الْكَاشِفِ لِمَاسِي الْفَقْدِ الَّذِي اعْتَرَى الشَّاعِرَ فِي آيَاتِهِ.
وَلِذَلِكَ بَاتَ الْحَدِيثُ عَنِ الْحَاضِرِ مِنْ قَبِيلِ الْمُسْتَحِيلِ، مَا دَامَ لَا يَحْمِلُ إِلَّا
الْمَاسِي وَالْمُعَانَاةَ، وَبَاتَ - فِي الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ - الْحَدِيثُ عَنِ الْمَاضِي
مِنْ مَحَامِدِ الْفُرْجَةِ، مَا دَامَ لَا يُخَزِّنُ إِلَّا الْجَمِيلَ مِنَ الذِّكْرِيَّاتِ السَّعِيدَةِ.
وَكَائِنٌ مِنْ عُدْرِي تَعْنَى فِي قَصَائِدِهِ بِنَبْعِ الصَّبَا، وَعَاشَتْهُ عَيْشَةُ
الْغَائِبِينَ عَنْ حَاضِرِهِمْ، الْحَاضِرِينَ فِي غَائِبِهِمْ، وَهَذَا مَا وَلَدَ لَدَى
هُؤُلَاءِ نَوْعًا مِنَ الْإِنْفِلَاتِ عَنِ الدَّاتِ وَالْإِتِّحَادِ فِي الْآخِرِ، مَا دَامَ
الْآخِرُ هُوَ الْمَطْلُوبُ فِي نَفْسِ الْعَاشِقِ، مِثْلَمَا أَنَّ اللَّهَ مَطْلُوبٌ فِي نَفْسِ
الصُّوفِيِّ؛ فَكَأَنِّي بِتَقَلُّبَاتِ الدَّاتِ الْعُدْرِيَّةِ فِي هَيَامِهَا، تَقَرَّبُ مِنَ الشَّطْحِ
الصُّوفِيِّ الَّذِي يَقُومُ «عَلَى عَنَبَةِ الْإِتِّحَادِ، وَيَأْتِي نَتِيجَةً وَجْدٍ عَنِيْفٍ لَا

يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ كَيْمَانَهُ، فَيَنْطَلِقُ بِالْإِفْصَاحِ عَنْهُ لِسَانُهُ...فَيُوزَعُ
الْعَاشِقِينَ بِاسْتِئْذَالِ كُلِّ مِنْهُمَا دَوْرَهُ بِدَوْرِ الْآخَرِ، وَتَرْغَبُ النَّفْسُ فِي
التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ (الْمُتَكَلِّمِ) وَمِنْ غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهَا بِذَلِكَ، عَنْ مَقَاصِدِ
الْمَحْبُوبِ نَفْسِهِ، وَإِنَّ فِي هَذَا لِأَشَدِّ امْتِحَانٍ لَتَوَاضُعِهَا، وَإِنَّهُ لَخَتَمٌ
لِاصْطِفَائِهَا ¹⁹.

2-3- الكبت العذري وتعطيل الإرادة: Le refoulement

مِمَّا لاشْكَ فِيهِ أَنَّ الْعُذْرِيَّةَ أَضْحَتْ فِي مُنْطَلَقَاتِهَا التَّعْبِيرِيَّةِ
تَرْتَكِزُ عَلَى دَوَافِعِ تَعْطِيلِ الْإِرَادَةِ، وَمِنْ ثَمَّ الْكَبْتُ الْمُصَاحِبُ لِهَذَا
التَّعْطِيلِ. لِأَنَّ نُشُوءَ الشَّعْرِ الْعُذْرِيِّ بَزَرَغَ فِي سَمَاءِ الْأَدَبِ، حَيْثَمَا لَمْ
تَسْتَطِعِ الذَّاتُ الْعُذْرِيَّةُ أَنْ تَقْصَحَ عَنْ مَكْنُونَاتِهَا وَأَنْ تُجَسِّدَهَا عَلَى أَرْضِ
الْوَاقِعِ، وَلِذَلِكَ ظَهَرَ هَذَا الشَّعْرُ فِي أَوْجِهِ، حَيْثَمَا انْكَفَأَ الْعُذْرِيُّ عَلَى
نَفْسِهِ يُسَائِلُهَا وَيُحَاوِرُهَا، خَوْفَ الْهَلَاكِ مِنْ سَطْوَةِ الْحُكَّامِ. فَبَدَأَ
حِينَئِذٍ هَذَا الْإِنْتِاجُ الْأَدَبِيُّ لُونًا لَهُ خُصُوصِيَّاتُهُ الْفَنِّيَّةُ، وَطُفُوسُهُ
التَّعْبِيرِيَّةُ، الَّتِي تُعَبِّرُ بِصِدْقٍ عَنْ بَوَاطِنِ مَا أُتْكَبِحَ مِنْ مَشَاعِرِ عَهْدٍ
ذَلِكَ. فَصَارَتْ هَذِهِ الْأَخِيرَةُ دَقَائِنَ عَالِقَةٍ يَدَاخِلُ الشَّاعِرُ، كَوْنَتْ فِي
دَاخِلِهِ كَبْتًا يَرَاهُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ تَدَافِعًا قَوِيًّا يَنْشَأُ عَنْ «دَفْعِ السُّلُوكِ
اللَّاشُعُورِيِّ لِلانْطِلَاقِ إِلَى سَطْحِ الشُّعُورِ، حَتَّى تَحَقَّقَ عَلَى أَرْضِ
الْوَاقِعِ، وَلَكِنَّ الْأَنَا الْأَعْلَى الَّذِي يُمَثِّلُ مَجْمُوعَةَ الْقِيَمِ الرُّوحِيَّةِ
وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ تُحَاوِلُ أَنْ تَقِفَ فِي وَجْهِ "الهُوَ" حَتَّى لَا يَطْفُو
عَلَى السَّطْحِ، وَيَتَجَسَّدَ فِي سُلُوكِ الْإِنْسَانِ هَذَا الصَّرَاعُ بَيْنَ "الهُوَ" وَالْأَنَا
الْأَعْلَى" يَنْتُجُ عَنْهُ كَبْتُ لِكَثِيرٍ مِنَ السُّلُوكِ وَالَّذِي يَكُونُ مَصْدَرًا لِكَثِيرٍ
مِنَ النُّصُوصِ الْإِبْدَاعِيَّةِ» ²⁰.

وَإِذَا كَانَ الْكَبْتُ رَدًّا فَعَلَّ عَكْسِيًّا يَنْقَاسِمُهُ الْهُوَ وَالْأَنَا الْأَعْلَى، فَإِنَّ تَعْطِيلَ
الْإِرَادَةِ نَتِيجَةٌ حَثْمِيَّةٌ لِهَذَا الصَّرَاعِ الْخَفِيِّ، وَلِذَلِكَ تَبْدُو الْإِرَادَةُ الْعُذْرِيَّةُ
حَاصِلَةً وَلَكِنَّهَا فِي مَدٍّ وَجَزْرٍ نَفْسِيَّيْنِ، لَا يَخْبُو نُورُهَا مَا دَامَتْ تَخْلُقُ
عَالَمَهَا الْخَاصَّ الْمُحَلِّيَّ فِي تَهْذِيبِ النَّفْسِ عَنْ طَرِيقِ الْإِمَاءِ وَالْإِشَارَةِ
الْمُنْبَجِسَتَيْنِ فِي ظِلِّ الشَّعْرِ.

فَالْعُذْرِيَّةُ إِذِنْ «إِرَادَةُ اللَّادُعِي الَّذِي صَدَعَ فِي وَجْهِ الْوَاقِعِ، بَعْدَ أَنْ كُيِّلَ
الْوَعْيُ وَحُظِرَ. هِيَ إِرَادَةُ التَّغَلُّبِ عَلَى الْقَهْرِ وَالسَّلْبِ الَّذِي مُورَسَ
عَلَى الْفَرْدِ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ الْأُمُويِّ، وَمُورَسَ عَلَى جَمِيعِ الْأَصْنَعَةِ-
سِيَاسِيَّةٍ، وَاجْتِمَاعِيَّةٍ، وَفِطْرِيَّةٍ- إِنَّ الْعُذْرِيَّةَ صَرَخَةٌ إِرَادِيَّةٌ تَجَسَّدَتْ مِنْ
خِلَالِ اللَّادُعِي فِي نَصِّ إِبْدَاعِي حَمَلِ جَوْهَرِ الْوَاقِعِ الْأُمُويِّ الْمَرْفُوضِ

مِنَ الْفَرْدِ الْمَسْحُوقِ الَّذِي خَابَتْ طُمُوحَاتُهُ الْكُبْرَى، الَّتِي ضَحَّى مِنْ أَجْلِهَا بِفِطْرَتِهِ وَفِكْرِهِ وَسَيِّقِهِ، لِيَجِدَ فِي النَّهَايَةِ أَنَّ الْهَدَفَ وَالْغَايَةَ قَدْ حُورَّتْ عَنْ مُبْتَغَاهَا الْجَوْهَرِي، مِنْ مُجْتَمَعٍ يَحْسُ فِيهِ الْفَرْدُ بِإِنْسَانِيَّتِهِ وَحُرِّيَّتِهِ، إِلَى فَرْدٍ تَحَطَّمَتْ فِيهِ أَمَانِيهِ عَلَى صَخْرَةِ الْإِسْتِبدَادِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ الْأُمُويَّةِ»²¹.

ألفينا ونحن نُنْقَبُ فِي هَذِهِ الْيَانِيَّةِ -الجامعة أطرافَ العناصر، التي نَصْنُو دَرَسَاتِنَا إِلَيْهَا- نُزُوعاً نَحْوَ التَّسْتَرِّ وَالْإِخْفَاءِ وَهَذَا هُوَ اللَّوْنُ الْغَالِبُ عَلَى النَّمَطِ التَّعْيِيرِيِّ الْعُدْرِيِّ، كَمَا سَبَقَ وَأَنْ ذَكَرْنَا.

يقول قيس:

- 8- فَأَشْهَدُ بِالرَّحْمَنِ مَنْ كَانَ مُؤْمِناً
وَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ فَهُوَ دَعَا لَنَا
- 9- لَحَى اللَّهُ أَقْوَاماً يَقُولُونَ: إِنَّنَا
وَجَدْنَا (الْهَوَى) فِي النَّأْيِ لِلصَّبِّ شَافِياً
- 10- فَمَا بَالُ قَلْبِي هَذِهِ (الشَّوْقُ وَالْهَوَى)
وَأَنْضَجَ (حَرُّ الْبَيْنِ) مِثْلِي فُؤَادِيَا
- 11- أَلَا (لَيْتَ) عَيْنِي قَدْ رَأَتْ مَنْ رَأَكُمُ
لَعَلِّي أَسْأَلُو سَاعَةً مِنْ (هُيَامِيَا)
- 12- وَهَيْهَاتَ أَنْ أَسْأَلُو مِنْ (الْحُزْنِ وَالْهَوَى)
وَهَذَا قَمِيصِي مِنْ (جَوَى الْبَيْنِ) بِالْيَا²²

إِنَّ الْمَتَبَصِّرَ بِالْأَبْيَاتِ الْمُنْقَدِّمَةِ، يَسْتَخْلِصُ لَا شَكَّ مَظَاهِرَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ أَنْفَاءً مِنَ الْكَبْتِ وَتَعْطِيلِ الْإِرَادَةِ، ذَلِكَ أَنَّ الْبَيْتَ الْعَاشِرَ يَوْمِي عَنْ كَتَبِ إِلَى هَذَا الزَّوْجِ الْمَشْتُولِ، فَالشَّوْقُ وَالْهَوَى الْهَادِمَانِ، وَالْبَيْنُ الْحَارِقُ كُلُّهَا تَعَابِيرُ نُوحِي بِغَزَارَةٍ عَنْ كَبْتِ الْمَشَاعِرِ الرُّوحِيَّةِ وَتَعْطِيلِ الْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِالْأَشْطَارِ الدَّاخِلِيِّ النَّاجِمِ عَنْ عُرْفِيَّةِ الْمُجْتَمَعِ؛ لَكِنْ عِنْدَمَا نَتَذَكَّرُ أَنَّ أَمَامَ قَصِيدَةِ شِعْرِيَّةٍ -أَحْسَنَ صَاحِبِهَا عَزَاءً نَفْسِهِ وَالتَّعْيِيرِ عَنْ دَوَاخِلِهِ، بُلْغَةً مُبْلَغَةً بَلِيغَةً، اعْتَمَدَتْ النَّبْرَ الصَّوْتِي الْعَالِقَ بِحَرْفِ الْيَاءِ الطَّوِيلَةِ أَسَاساً فِي الْكَشْفِ عَنْ أُنَيْنِ النَّفْسِ السَّاعِرَةِ - فَإِنَّ مَنْظُورَ الْفُتُورِ يَبْلَاشِي نَوْعاً مَا، مَا دَامَ أَنَّ الْقَصِيدَةَ جَسَدٌ نَابِضٌ حَرَكَةٌ وَحَيَوِيَّةٌ، وَهُوَ مَا يُبَرِّرُ مِنْ أَنَّ الْإِرَادَةَ كَائِنَةً مَا دَامَ الْكَلَامُ مَوْجُوداً فِي ذَاتِ الْعُدْرِيِّ.

ثُمَّ إِنَّ الْبَيْتَ الْحَادِي عَشَرَ - هُوَ الْآخِرُ - تَغْيِيرٌ عَنِ الشَّلَلِ الْإِرَادِي وَبِالْإِثْبَاتِ الْكَبْتِ، مَا دَامَ أَنَا أَمَامَ حَرْفٍ مُشَبَّهِ بِالْفِعْلِ، يُفِيدُ فِي مَعْنَاهِ النَّحْوِي التَّمَنِّي، وَالتَّمَنِّي شَيْءٌ عَالِقٌ فِي الدَّاتِ مُنْعَمٌ فِي الْوَاقِعِ، أَوْ قَدْ يَكُونُ عَسِيرًا كَمَا يَقُولُ الْبَلَاغِيُّونَ²³. مِمَّا يُسَلِّمُنَا إِلَى الْقَوْلِ: إِنَّ الْأَمَلَ كَائِنٌ مَا كَانَتْ الدُّنْيَا، أَيْ أَنَّ نِسْبَةَ الْإِرَادَةِ مَوْجُودَةٌ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي عَدَمِ تَحَقُّقِ مَا نَصَبُوا إِلَيْهِ، تَبْدُو مُعْطَلَةً، وَهَذَا التَّعْطِيلُ لَيْسَ انْعِدَامًا - بِطَبِيعَةِ الْحَالِ - يَقْدَرُ مَا يُوحِي إِلَى وُجُودِ دِينَامِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ، لَا تُؤْمِنُ بِالْفَشَلِ إِطْلَاقًا، لِأَنَّ تَعْطِيلَ الْإِرَادَةِ - عَلَى حَدِّ قَوْلِ الْعَقَادِ - «أَصِيلٌ فِي الْهَوَى كُلِّهِ، وَلَا سِيَّمَا الَّذِي تُسَمِّيهِ بِالْعَشْقِ أَوْ تُسَمِّيهِ بِالْغَرَامِ، لِأَنَّ الْمَرْءَ يَرْتَبِطُ فِيهِ بِإِرَادَةِ شَخْصٍ آخَرَ فَهُوَ مُقَيَّدٌ بِهَذَا الْارْتِبَاطِ الَّذِي لَا تَنْقُصُ فِيهِ الْإِرَادَتَانِ فِي جَمِيعِ الْأَحْيَانِ... وَبِئَنَّهُ يَهْدِي بِهِ الْأَمْرُ إِلَى الْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِ عَجْزًا عَنْ تَغْيِيرِهِ لَا سُرُورًا بِهِ وَلَا رَغْبَةً فِيهِ... فَهُوَ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَعْشُوقَتِهِ لِأَنَّهُ رَاضٍ عَنْ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ بِتَلَدُّدِهَا، وَيَتَشَهَّاهَا، وَيَتَذَوَّقُ النُّعْمَةَ وَالْهَنَاءَ فِيهَا، وَلَكِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِهِ لِأَنَّهُ عَنْ فِرَاقِهِ مُقَيَّدٌ بِضُرُوبٍ مِنَ الْعَادَاتِ وَالْوَسَاوِسِ لَا حِيلَةَ لَهُ فِيهَا وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهَا»²⁴. وَلِذَلِكَ رَأَيْنَا قَبَسًا يَقُولُ:

11- أَلَا لَيْتَ عَيْنِي قَدْ رَأَتْ مَنْ رَأَكُمُ

لَعَلِّي أَسْلُو سَاعَةً مِنْ هِيَامِيَا

كَمَا نَلْفِي الْبَيْتَ الثَّانِي عَشَرَ نَدْعِيْمٌ لِذَلِكَ الْاسْتِنْقَارِ النَّفْسِيِّ، الَّذِي طَفِقَ يَهَيِّمُنُ عَلَى الدَّاتِ الْعُدْرِيَّةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، وَهَذَا الْبَيْتُ تَأْكِيدٌ وَاضِحٌ لِنَوَازِعِ الْمُكَابَدَةِ وَحُرْقَةِ الْجَوَى، الَّتِي أَضْحَتْ رَفِيقَةَ الشَّاعِرِ، لَا تُقَارِفُهُ الْبُئَةُ:

12- وَهَيْهَاتَ أَنْ أَسْلُو مِنْ الْحُزْنِ وَالْهَوَى

وَهَذَا قَمِيصِي مِنْ جَوَى الْبَيْنِ بَالِيَا

13- فَقُلْتُ: نَسِيَمَ الرِّيحِ أَذْ تَحِيَّتِي

إِلَيْهَا وَمَا قَدْ حَلَّ بِي وَدَهَانِيَا

14- فَأَشْكُرُهُ إِلَيَّ إِلَى ذَلِكَ شَائِقٌ

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَكُونُ نَاقِيَا؟!!!

2-4- ملامح المازوشية في الشعر العذري: Le Masochisme

يَنشأ هذا المبدأ النفسي في فحوى العلاقات الغرامية المبنيّة على العلاقة الضدية، بين شرعية الزواج وبين قصم هذه الشرعية في المجتمع العذري، لكون أن العاشق لم يُسمح له آنذاك بالتغزل بالمرأة، ولو حصل وأن فعل فقد ذلك الصرح العزيز المقدس، ألا وهو الزواج؛ ومن ثم كان المتعشق يؤمن كل الإيمان بهذه العضلة، بيد أنه كان يزيد في تشبيهه بالمرأة، اعتقاداً منه أنه يُفرج كربته ويذوي نفسه الهيمانة المريضة من ألم العشق.

ولهذا أوجد علماء النفس تفسيراً لهذه المطية الغريبة، في كون العاشق وهو يتعشق، يتململ في روحانيته العشقية، تملأه يجعل من تلك الحياة الداخلية حياة مازوشية، لا تستقيم إلا بتعذيب الذات؛ ولأن الحيز الروحي الدافق في كنه العاشق يمثل حرية التصرف في حياة من نوع خاص؛ إنها الحياة الفردية- حياة العزوف عن الآخر- والتي لا تحيا إلا بتطبيب الذات بحرقتها، وتعذيبها بمناوتتها.

أفلا نستطيع القول- عذني-: إن المازوشية ضرب من الغيرة المفرطة، مادامت هذه الأخيرة لا تتحقق إلا حينما يراقب المحب محبوبه، في كل ما يعتريه من شؤون الحياة اليومية، ذلك أن من «خلّيق بعض الضعفاء أن تُعريضهم الإساءة والحرمان، وتزيدهم كلفاً على كلف بمن أحبوا من النساء، ولاسيما التي تحسن المنع والإغراء والإطماع بالإقصاء»²⁵.

يقول قيس:

15- (مُعَذِّبِي!) لَوْلَاكَ مَا كُنْتُ هَائِماً

أَبَيْتُ سَخِينِ الْعَيْنِ حَرَّانَ بَاكِياً

16- (مُعَذِّبِي!) قَدْ طَالَ وَجْدِي وَشَقْنِي

هَوَاكَ قَيّاً لِلنَّاسِ قُلَّ عَزَائِيَا

17- (مُعَذِّبِي!) أَوْرَدْتَنِي مِنْهُلَ الرَّدَى

وَأَخْلَقْتَ ظَنِّي وَاخْتَرَمْتَ وَصَالِيَا

وكل هذه الأبيات تقترب من قوله:

يَقُولُونَ: لَيْلَى عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا أَلَا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُعَذَّبُ

هَذَا، وبالرَّغْمِ مِنْ مُقَارِبَتِنَا الْحَاصِلَةِ، فَإِنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّهَا حَاولَتْ تَرْجَمَةَ
النَّوَازِعِ الدَّائِيَةِ وَفَقَ مَقُولَاتِ نَفْسِيَةِ كَانَتْ مُحَضَّرَةً سَلَفًا؛ وَهَذَا بِطَبِيعَةِ
الْحَالِ شَأْنُ الْمَنَاهِجِ النَّقْدِيَةِ السِّيَاقِيَةِ (المِغْيَارِيَةِ) الَّتِي تُقَحِّمُ نَتَائِجَهَا فِي
أَيِّ إِبْدَاعٍ أدَبِيٍّ قَدْ يَكُونُ بَرِيئًا مِنْهَا؛ غَيْرَ أَنَّنَا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى لَا نُقَلِّلُ
مِنْ تَفْسِيرَاتِهَا مَا دَامَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الاسْتِزَامِ بَيْنَ نَسَقِهَا اللُّغَوِيِّ (Le
système Langagier) وَسِيَاقِهَا الاجْتِمَاعِيِّ (Contexte sociale).

ثُمَّ إِنَّ اعْتِمَادَ عَلَى التَّقْدِيرِ النَّفْسِيِّ فِي تَحْلِيلِ الْأَعْمَالِ الْإِبْدَاعِيَّةِ يُعَدُّ
فِي حَدِّ ذَاتِهِ قُصُورًا نَقْدِيًّا، يَعْجِزُ عَنْ تَبْيَانِ بَعْضِ النَّوَاحِي الْبَاطِنِيَّةِ،
الَّتِي لَا يُفَسِّرُهَا إِلَّا مَنْ رَضَعَ أَوَارَهَا، وَاكْتَوَى بِنَارَهَا، فَيَصِيرُ هُوَ
الْمُحَلَّلُ وَالْمُحَلَّلُ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ. وَلِذَلِكَ أَلْفَيْنَا مِنْ هَذِهِ الْمَنَاحِي
التَّحْلِيلِيَّةِ الْخَبِيئَةِ آراءَ تَسُدُّ كَثِيرًا مِنَ الْقُصُورِ النَّقْدِيِّ الَّذِي لَمْ
يَتَقَطَّنْ إِلَيْهِ بَعْضُ النُّقَادِ، مِمَّنْ حَمَلُوا لَوَاءَ التَّقْدِيرِ النَّفْسِيِّ لِلنُّصُوصِ
الْإِبْدَاعِيَّةِ؛ كَيْفَ لَا وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مَا دَرَجَ مِنْ نُّصُوصِ شِعْرِيَّةٍ
عُدْرِيَّةٍ لَا تُبْدِي إِلَّا طَابَعَ التَّعْذِيبِ لِلذَّاتِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى الذَّاتِ
الْعُدْرِيَّةِ فِي تَقْلُبَاتِهَا الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ وَبِالْثَّالِثِي النَّفْسِيَّةِ، وَعَلَيْهِ،
فَالْقَرَاءَةُ الْقَائِلَةُ إِنَّ «الْعُدْرِيَّينَ» وَبِخَاصَّةٍ جَمِيلَ كَانُوا مَازُوشِي
الطَّبْعِ، لِأَنَّ تَعْذِيبَ الذَّاتِ أَصِيلٌ فِي طَبَائِعِهِمْ، لَمْ تُدْرِكْ أَنَّ
التَّعْذِيبَ الَّذِي تَجَسَّدَ فِي قِصَصِ الْعُدْرِيَّينَ وَإِبْدَاعِهِمْ لَمْ يَكُنْ نَابِعًا
عَنْ عَقْدَةٍ نَفْسِيَّةٍ «الْمَازُوشِيَّةِ»، وَإِنَّمَا كَانَ تَعْبِيرًا صَارِخًا فِي وَجْهِ
الْإِقْصَاءِ الَّذِي مُورَسَ عَلَى الْفَرْدِ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ الْأُمُويِّ، فَتَجَسَّدَ
بِفِعْلِهِ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْحُكْمِ ذِي الطَّبَاعِ الشُّورِيِّ، الَّذِي كَانَ يُحْسُّ فِيهِ
الْفَرْدُ يَحْرِيَّتَهُ وَإِنْسَانِيَّتَهُ وَمَكَانَتَهُ، إِلَى حُكْمِ ذِي طَابَعٍ مَلَكِيٍّ
إِقْصَائِيٍّ غَابَتْ فِيهِ كُلُّ الْقِيَمِ الَّتِي ضَحَّى مِنْ أَجْلِهَا بِحُقُوقِهِ الطَّبِيعِيَّةِ
الْأَزَلِيَّةِ وَمَجْهُودِهِ الْجِهَادِيِّ»²⁶، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ هَذَا السُّلُوكَ يَحْمِلُ فِي
حَقِيقَتِهِ طَابِعًا إِيْجَابِيًّا يُتْرَجَمُ مِصْدَاقِيَّةَ الْمُعَانَاةِ الَّتِي اصْطَلَى بِنَارِهَا
الشَّاعِرُ الْعُدْرِيُّ، فِي لَحْظَةٍ مِنَ اللَّحْظَاتِ، وَهَذِهِ الْمُعَانَاةُ نَتَجَتْ جَرَاءَ
السِّيَاسَةِ الْأُمُويَّةِ، الَّتِي تَبَدُّو بِالنَّسْبَةِ لِلْعُدْرِيِّ قُوَى خَارِجِيَّةٍ Forces
Externes تُسَيِّطِرُ عَلَى السِّيَاقِ الاجْتِمَاعِيِّ، وَتُكَبِّلُ حُرِّيَّةَ التَّعْبِيرِ، وَبِذَلِكَ
يُحْتَمُّ رَدُّ الْفِعْلِ عَلَى الْأَوْضَاعِ السَّائِدَةِ آنَ ذَاكَ النَّدَاءِ مِنَ الدَّخْلِ، مَا دَامَ
الْخَارِجُ لَا يَفِي بِنَزَاعَاتِهِ، وَلَا يُمَثِّلُهَا أَحْسَنَ تَمَثِيلٍ.

يُعَلِّلُ الدُّكْتُورُ بِلُوحي ذَلِكَ قَائِلًا: «الْعُدْرِيَّةُ ضَرْبٌ مِنَ السَّامِيِّ حَاوِلٌ مِنْ خِلَالِهِ الْعُدْرِي أَنْ يَرْتَفِعَ عَنْ وَاقِعِهِ الْمَرْفُوضِ لِيَعِيشَ فِي عَالَمٍ رُومَانْسِيٍّ، شَبِيهِ الْعَالَمِ الَّذِي كَانَ يَطْمَحُ إِلَيْهِ وَيَحْلُمُ بِهِ مُعْتَمِدًا فِي ذَلِكَ عَلَى الْخَيَالِ، لِأَنَّ الْخَيَالَ عَامِلٌ حَاسِمٌ فِي رَسْمِ الصُّورَةِ الشَّعْرِيَّةِ عِنْدَ الْغَرْبِيِّينَ، وَالْارْتِقَاءُ بِاللُّغَةِ مِنْ مُسْتَوِيَّاتِ الْخُطَابِ التَّقْرِيرِيِّ الْإِخْبَارِيِّ، إِلَى مُسْتَوِيَّاتِ إِسْتِشْرَاقِيَّةٍ يَكُونُ فِيهَا الْخَيَالُ خَيَالًا ابْتِكَارًا مُطْلَقًا لَا تَحْكُمُهُ الْإِرَادَةُ الْعَاقِلَةُ، وَلَا يَتَقَيَّدُ بِالزَّمَانِ فِي مَاضِيهِ أَوْ حَاضِرِهِ، فَهُوَ خَيَالٌ نَابِعٌ مِنَ الصُّورَةِ الْمِثَالِ الْمُرْتَسِمَةِ فِي مُخَيَّلَةِ الشَّاعِرِ، وَالتِّي لَا يَجِبُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى كُنْهَيْهَا أَوْ جَوْهَرِهَا أَحَدٌ»²⁷.

يمكن القول -أيضاً-: إِنَّ الشَّعْرَ الْعُدْرِيَّ فِي عُمُومِهِ يَنْزَعُ مَنَزَعًا تَأَوُّهِيًّا، تَتَوَارَى فِيهِ الدَّائَةُ الْعُدْرِيَّةُ خَلْفَ الْكَلِمَاتِ وَتَتَكْشِفُ الطَّوَاهِرُ النَّقْصِيَّةُ لِلْقَارِئِ عَنْ طَرِيقِ الْمُعْجَمِ الشَّعْرِيِّ الَّذِي أَوْجَدَهُ السِّيَاقُ الْعَامُّ الْكَاسِحُ لِنَبْرِ الْخُطَابِ الْأُمُويِّ؛ وَمِنْ ثَمَّ نَتَجَّ أَسْلُوبُ الشَّعْرِ الْعُدْرِيِّ إِثْرَ وَقْعِ خَاصٍّ، سَاهَمَتْ فِيهِ جُمْلَةٌ مِنَ الْعَوَامِلِ الدَّائِيَّةِ، وَالتِّي تَخُصُّ الشَّاعِرَ الْعُدْرِيَّ فِي حَدِّ ذَاتِهِ، وَأُخْرَى مَوْضُوعِيَّةٌ تَتَجَلَّى بِالْخُصُوصِ فِي الْعُرْفِ الْاجْتِمَاعِيِّ السَّائِدِ آنَ ذَاكَ، ثُمَّ إِنَّ الْجَانِبَ الدِّينِيَّ - الَّذِي انْتَضَمَتْ قَوَانِينُهُ فِي الْعَهْدِ الْأُمُويِّ - سَاهَمَ هُوَ الْآخَرُ فِي صَبْغِ هَذَا الشَّعْرِ بِصِبْغَةٍ فَنِيَّةٍ خَاصَّةٍ.

وَلَعَلَّنَا لَا نَحِيدُ عَنْ جَادَةِ الصَّوَابِ إِنْ قُلْنَا: إِنَّ مُقَارَبَةَ الشَّعْرِ الْعُدْرِيِّ وَفَقَّ مَنَهِجَ وَاحِدٍ يُعَدُّ - فِي حَدِّ ذَاتِهِ - قُصُورًا نَقْدِيًّا، لَا يُبِيحُ فَعَالِيَّةَ الْإِبْدَاعِ فِيهِ، وَلَا يَبْلُغُ نُحُومَ الْمَعْنَى؛ وَلِذَلِكَ تُشِيدُ بِالدرَاسَاتِ الَّتِي قَدْ تُطَبَّقُ بَعْضُ الْمُقَارَبَاتِ اللِّسَانِيَّةِ الْحَصِيْفَةِ مِثْلَ السِّيمْيَانِيَّةِ وَالتَّدَاوُلِيَّةِ، عَسَاهَا تَكْشِفُ لَنَا بَعْضَ الشَّيْءِ عَوَامِلَ خَفِيَّةٍ أَسْهَمَتْ فِي إِنْتَاجِ هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الشَّعْرِ؛ ثُمَّ إِنَّهُ يَنْبَغِي الْإِلْتِقَاتُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى - نَحْوَ الْأَشْعَارِ الْعُدْرِيَّةِ، الَّتِي تُحَاكِي وَقَائِعَ قَرِيبَةٍ مِنَ الْأَسَاطِيرِ، تَكْشِفُ عَنْ ثَرَاكِيدِيَّ الْعِشْقِ الْعُدْرِيِّ، كَمَا تُحَاوِلُ الْاسْتِعَانَةَ بِعُلُومٍ أُخْرَى قَدْ تُوصِلُنَا إِلَى تَفْسِيرٍ مِعْطَاءٍ لِلظَّاهِرَةِ الْعُدْرِيَّةِ؛ نَذْكُرُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ: عِلْمَ الْاجْتِمَاعِ، وَعِلْمَ الْأَنْثُرُوبُولُوجِيَا، وَعِلْمَ التَّارِيخِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْعُلُومِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى تَفْسِيرِ عِلْمِي لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ.

الهوامش والإحالات:

- 1- يُنظر الجزء الأول من التحليل في مجلة متون، ع3، ص77.
- *- تذكر على سبيل التمثيل: ابن منظور في مؤلفه اللسان إذ يقول: "سئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق: أيهما أحمد؟ قال: الحب، لأنّ العشق فيه إفراط، ويسمى العاشق عاشقاً لأنّه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشقة إذا قطفت". وكذلك قول الإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي في كتابه (طوق الحمامة): "الحب - أعزك الله - أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا أدرك حقيقتها إلا بالمعاناة"2. (يُنظر: ابن منظور - لسان العرب، دار إحياء التراث العربي لبنان - د. ت ج 10/ ص 251-252 وأيضاً: ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألف، تحقيق: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة لبنان، ط جديدة سنة 1972 ص 60).
- و للإفادة يُنظر: د. نزار بريك هندي، في مهبّ الشعر - مقالات ودراسات - منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2003م، فمثلاً يقول في الصفحة 51 من هذا الكتاب: «فمن الجدير بالذكر أن لأجدادنا العرب مكانة متفردة في هذا النوع من التأليف، فقد أعطوا العالم عدداً من كتب الحب التي استطاعت اختراق الثقافة الغربية وبقيت تشكل المرجع الرئيس في بابها طوال عصور عديدة، وما زالت تلعب دورها المؤثر الكبير حتى يومنا هذا. وعلى رأس هذه الكتب كتاب (الزهرة) لأبي داود و(طوق الحمامة) لابن حزم، و(الروض العاطر في نزهة الخاطر) للشيخ النفزاوي».
- 2- ابن حزم الأندلسي: المصدر السابق، ص60.
- 3- صادق جلال العظم: في الحب والحب العذري، ص 14. نقلاً عن د. محمد بلوحي: الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث (دراسة في نقد النقد)، مطبعة اتحاد الكتاب العرب - دمشق، سوريا - ط 2000 ص 55.
- ** - يُنظر: الجيلي (الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم): الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تح: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1997م. ص 85 وما بعدها. وأيضاً:
- 4- الشيخ عبد الكريم الجيلي: الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، ص 85.
- 5- اليوسف يوسف: الغزل العذري - دراسة في الحب المقموع - دار الحقائق - لبنان ط 2، سنة 1982 ص 36.
- 6- صادق جلال العظم - في الحب والحب العذري، ص 14. نقلاً عن د. محمد بلوحي، المرجع السابق، ص 55.
- 7- بلوحي محمد: المصدر السابق، ص 56.
- 8- قيس بن الملوّح: الديوان، قراءة وشرح عدنان زكي درويش، دار صادر - بيروت ط 1994م. ص 235، 236، 237.
- 9- ينظر د. عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد - متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة الجزائر ط 2002م، ص 138.
- 10- عبد الملك مرتاض: المرجع نفسه، ص 138.
- 11- Charles mouron l'inconscient dans l'œuvre et la vie de j. racine. Ophrys. Gap. 1957.
- . نقلاً عن د. عبد الملك مرتاض، المرجع السابق، ص 141.
- 12- يُنظر: المبحث الأول (2-1) من القراءة النفسية (بين الوجع العشقي والإنشطار الداخلي) في مجلة متون، ع3، من ص 83 إلى ص 87.
- *** يقول يوسف اليوسف - في كتابه: الغزل العذري ص 71 «لم يلقب قيس بن الملوّح بالمجنون إلا لأنّه كان أقلّ الشعراء تحملاً لصدمة الحرمان، وأكثرهم حزناً من أجل الخيبة التي مني بها الدافع العشقي. ولعلّ حسّ الحظر في شعره أشدّ عمقاً منه في شعر سواه. ويتبدّى هذا الحسّ في الغالب على هيئة حوّل يمنعه من الالتقاء بليلى».
- 13- قيس بن الملوّح: الديوان، ص 252.

- 14- سورة الثور، الآية 24.
- 15- يوسف اليوسف: الغزل العذري-ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1981-دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ص 43.
- 16- قيس بن الملوّح: الديوان ص 235، 236.
- 17- باديس فوغالي: الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، ملخص أطروحة دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر سنة 2004م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية- العدد السادس 1426هـ/2005م، ص 184.
- 18- بلوحي محمد: الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث، ص 63.
- 19- ماسينيون: "بحث في أصول المصطلح الفني للصوفية المسلمين"، ص 99. نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوي: شطحات الصوفية، الناشر- وكالة المطبوعات، 27 شارع فهد السالم، الكويت- الطبعة الثالثة 1978م، ج 1/ص 10.
- 20- بلوحي محمد: المرجع السابق، ص 67.
- 21- المرجع نفسه: ص 73.
- 22- قيس بن الملوّح: الديوان، ص 236.
- 23- ينظر: ابن هشام الأنصاري- قطر الندى وبل الصدى- تحقيق وشرح، يوسف الشيوخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، لبنان- طبعة 2001م، ص 194.
- 24- العقاد: المجموعة الكاملة دار الكتاب اللبناني، لبنان ط 1 سنة 1982م- مج 16/ ص 262-263.
- 25- بلوحي محمد: المرجع السابق، ص 79.
- 26- المرجع نفسه: ص 82.
- 27- نفسه: ص 82.

